لحظات

للدكتور طه حسين

أتعرف هذه اللحظات القصار المفاجئة التي تعرض لك من حيث لم تكن تقدر ان تلقاها كما كانت تكون لك في بعض انحاء الزمان ؛ حتى اذا قربت من مكمنها خرجت عليك بما يملؤها من قوة وحدة ، وبما تستطيع ان تثير في نفسك من حزن عريض عميق أو أمل واسع مبتسم . فوقفتك في طريقك الزمني واضطرتك بعد وقفة قصيرة الى ان ترجع الى الماضي البعيد والقريب تستحضر ما كان فيه من أحداث ، تحس مما ترك في نفسك من ذكرى ، أو تضطرك الى ان تثب وثبة بعيدة الى مستقبل الايام ، فاذا انت تشيد القصور وتتخذ من الخيال احلاماً حلوة تحبب اليك الحياة وتملأ قلبك بالصفح عما جنت عليك من السيئات .؟

أتعرف هذه اللحظات القصار المفاجئة الخصبة التي لم تكن تقدر في وقت من الاوقات انها ستعرض لك او انك ستعثر بها ، ولكنك خرجت ذات يوم من دارك تسعى فيما يسعى الناس فيه من جد الحياة وهزلها ، وتبلو ما يبلو الناس في سعيهم من حلو الحياة ومرها ، فاذا لحظة من هذه اللحظات قد سقطت عليك كما يسقط الجدار على الغريب الذي مر به مصادفة وهو يميل الى السقوط . اوعدت لك ثم مثلت امامك كما يمثل الشيء النفيس لبعض المارة ثم يمثل بين ايديهم حين يصلون اليه ، واذا هم وقوف امامه قد أخذتهم الحيرة ثم غمرهم السرور ؟ أتعرف هذه اللحظات القصار المفاجئة التي يتعمدها لك الغيب ويخفي عليك بوادرها وطوالعها ثم يفجأك بها على غير انتظار ، كما يلقاك الرجل تعرفه أو لا تعرفه فيلقي اليك نبأ من الانباء لا يرى له خطراً ولكنك لا تكاد تسمع له حتى يحدث في نفسك أعمق الآثار وأقواها ، وأبلغها وأدعاها إلى الحزن والابتئاس أو إلى الفرح والابتهاج ؟

إنك تحب هذه اللحظات حين تلقاها أو حين تلقاك قصاراً لأنك تحصيها بالدقائق والثواني ؛ وما هي بالقصار لأنها تحمل في رعائها الضيق الضئيل من العواطف والاهواء ؛ ومن الآمال والذكرى ، ومن المسرة والألم ؛ ما يضيق به كثير من الساعات بل كثير من الأيام . انك تحسب هذه اللحظات مفاجئة لانها عرضت لك أو لانك عرضت لها على غير انتظار ولا تهيؤ منها ولا منك وما هي بالمفاجئة . فان قوى أخرى غير قوتك وغير قوتها قد عملت منذ أزمان بعيدة في تهيئتك لها وتهيئتها لك ، وفي دفعك اليها ودفعها اليك ، حتى التقيتما عن مفاجأة في ظاهر الامر ، وعن قضاء مدبر وقدر مقدر في حقيقة الامر . واذا كلا كما قد صنع لصاحبه وقدر له تقديرا

هذه اللحظات القصار الطوال المفاجئة المدبرة لا تسنح للناس جميعا ، ولا تسنح للناس في كل وقت ، ولو عرفت وسيلة الى ان أبين كيف تسنح للناس ومتى تسنح لهم ؛ ولأيهم تسنح لكنت من أكبر المستكشفين والمخترعين . وكيف برجل يفضح سر القدر ويهتك استار الغيب ؟ ! ولكنت بعد ذلك محسنا الى كثير من الناس لأني اعلمهم كيف يتقون كثيرا من الشر ، وكثيرا من الالم اللاذع والحزن المضني للنفوس والقلوب . ومسيئا الى كثير من الناس لأني اعلمهم كيف يفقدون لذات قلما يظفر الناس بمثلها ؛ وكيف يصدهم العلم عن ضروب من السعادة لا ينعم بها الا الجهلاء ، ولحرصت اشد الحرص على ان اجهل هذا العلم واغلق نفسي من جميع أبوابها دون هذه القوالب ، لأني لا أعدل بهذه اللحظات القصار الطوال المفاجئة المدبرة كثيرا من اجزاء الزمن مهما تطل ؛ ومهما تقصر ، ومهما تمتلىء ومهما تفرغ ، واي حزن محض مرمض يشبه في اللذة المحرقة اللاذعة ، وفي السعادة المظلمة القاتمة هذا الحزن الذي حملته الى لحظة من هذه اللحظات في ليلة من الليالي فوضعته في قلبي ثقيلا خشنا شاقا ، ولكنه على ذلك كله حلو ، ولكني على ذلك أحببته وكلفت به . ولكني على ذلك حمدت هذه اللحظة القصيرة المفاجئة التي حملته حتى اذا بلغت قرارة نفسي وضعته فيها هادئة مطمئنة الى من أنصى الزمن ، وأقبلت به متباطئة متثاقلة كما توضع الصخرة الثقيلة في مكان من الامكنة في غير عنف ولا سأم ولا كلال .

كنت مع جماعة من الاصدقاء نشهد التمثيل ونسمع الموسيقى والغناء في الاوبرا . قد فرغنا لما نشهد وما نسمع ، وتركنا أعباء الحياة واثقالها جميعا في تلك العربة التي كانت تنتظرنا بالباب ، وقد حفظت لكل واحد منا ما إئتمنها عليه من الودائع لترده الينا متى عدنا اليها ، ولم تكن ودائعنا تلك التي إئتمنا عليها العربة وتخففنا منها قبل أن ندخل الاوبرا الا حياتنا اليومية وما فيها من مشقة ولين ، ومن مودة وبغض ، ومن يأس وأمل ، ومن ألم ولذة ، ومن نشاط

وخمود . تخففنا من هذا كله وسللنا نفوسنا منه الى حين كما تسل السيوف من اغمادها ، وخلصنا بقلوبنا ونفوسنا نقية صافية مصقولة كأنها المرآة نعرضها للمثلين لينعكس فيها مايبدعون من مظاهر الجمال الفني في التمثيل والغناء . وكنا لانحس الا مانشهد ونسمع ، ولا نفكر الا فيما نشهد ونسمع فاذا وقف التمثيل وتفرقنا في أنحاء الدار أو لبثنا في اماكننا لم نتحدث الا بما شهدنا وسمعنا نصفه ونستمتع به ، والا بما سنشهد ونسمع ، نتوقعه ونتنبأ بما سيحمل الينا من اللذة والمتاع . وهل ينبغي أن يدخل الناس دور الفن إلا على هذا النحو ، قد خلصوا للفن من كل شيء ومن ذكرى كل شيء ، وفرغوا للفن لا يشركون معه في نفوسهم شيئا ، واني لجالس في ناحية من نواحي الدار مع أصدقائي نتحدث بما كان في الملعب ونتوقع ما سيكون ، واذا صوت يخرج أصدقائي ويخرجني مما كنا فيه .. صوت لم أسمعه منذ أعوام وقد كنت أسمعه كل يوم ، صوت قد بعدت آماد الزمان والمكان بينه وبين سمعي حتى تقطعت بينه وبيني الاسباب ، وحتى كدت أنسى نبراته ، وحتى كنت أفكر فيه تفكيراً بعيداً نائياً حين كان يحدثني عنه المتحدثون . ثم دنا هذا الصوت ودنا ، ثم امتدت يد فامتدت اليها يدي . ثم كانت مصافحة ثم كانت تحية . ثم كان استئذان في الجلوس ، واذن به ، ثم كان وجوم من صاحب الصوت ، ووجوم ممن كان يلقه الصوت لم يطل ، ولم يكن من اليسير أن يلحظ ، ولكنه مع ذلك كان طويلا ثقيلا . ثم كان حديث قصير في أشياء لا تغني ولا تفيد ولا تدل على شيء ، ثم شرب القهوة واحراق السيجارة ، ثم تحية الوداع ، ثم الافتراق .

لست ادري اذاق اصدقائي لذة التمثيل بعد ذلك أم شغلوا عنه ؟ اما انا فاعلم اني لم اذق للتمثيل بقية الليلة طعماً ، انما كانت الاصوات تبلغ اذني ثم لاتصل الى نفسي وانما تقف من دونها وقوفا لأني كنت افكر في غير التمثيل ، ولأني صرفت عن الغناء والفن صرفا ، لم دنا الى هذا الصوت ، وكان قد بعد وأمعن في البعد ؟ لم امتدت الى هذه اليد وكانت قد قبضت عني قبضاً ؟ لم أتصل الحديث بين صاحب الصوت واليد وبيني وكانت قد انقطعت بينه وبيني الاحاديث ، بل كانت قد انقطعت بينه وبيني الصلات إلا أن نضطر اليها اضطرارا حين تجمعنا المجامع ، أو نلتقي على غير موعد ولا انتظار . ثم لانستطيع ان يهدي بعضنا الى بعض ماينبغي من الاعراض في مثل مانحن عليه من الجفاء . لم دنا الى هذا الصوت ؟ ولم امتدت الى هذه اليد ؟ ولم اتصل بيننا هذا الحديث ؟ لقد كان الحياء يترقرق في هذا الصوت الذي كان يدنو الى ماخوذا حزينا ولقد كان الحياء يضطرب في هذه اليد التي كانت تصافحني مترددة مرتعشة بعض الشيء . ولقد كان الحياء يملأ هذا الحديث فيضطره الى الفراغ مما يعنى أو يفيد . ومع ذلك فشهد الله ماشككت في أن هذا الصوت قد دنا الي صادقا ، وفي أن هذه اليد قد أمتدت الى صادقة وفي أن هذا الحديث قد اتصل بيننا خالصا من كل رياء .

وارحمتاه للناس ! ان الضعف الانساني ليحمل نفوسهم آلاما ثقالا . وارحمتاه للناس ! انما في الحياة من اعراض زائلة ترغبهم في الخير العاجل ، وتخوفهم من الشر العاجل ، لتحمل نفوسهم آلاما ثقالا . وارحمتاه للناس ! ان أجسامهم لتطغى على نفوسهم وان أهواءهم لتطغى على عقولهم ، وان منافعهم لتنسيهم حقوق الصداقة والصديق ، وارحمتاه للناس ! ان رهبة السلطان والرغبة في جاهه والحرص على قرب المكان منه لتفسد عليهم من لذات الحياة الخالصة الصافية مالا ينبغي ان يفسد ، وارحمتاه للناس ان لهم على هذا كله لنفوسا لم تطبع على الشر ، ولم يحل بينها وبين الخير ، وان هذه النفوس التي تضعف حتى تتورط فيما لاينبغي لها ، لتختلس الفرص الى القوة والخير اختلاسا ، وتختطفها اختطافا ، وتنعم منها باليسير الضئيل في اللحظة القصيرة المفاجئة ، لم تكن تنتظر ولم يكن يدبر السعي لها تدبيرا ، وانما سنحت فاقتنصت كما يسنح الصيد وتمكن منه الفرصة فيقتنص . وارحمتاه للناس ! لو علموا ان منافع الحياة واعراضها واغراضها ومافيها من رغبة ورهبة ، ومن مكانة وجاه لاتزن كلها لحظة قصيرة مفاجئة يصفو فيها الود ، ويخلص فيها النصح ، ويفرغ فيها الصديق للصديق ، لغيروا من حياتهم ومن سيرتهم الشيء الكثير .

عرضت لي هذه اللحظة القصيرة المفاجئة في ليلة من ليالي الاوبرا ، وما أكثر ماتعرض هذه اللحظات القصار المفاجئة لكثير من الناس في هذه الايام السود ، فاللهم ارفع عن الناس مقتك وغضبك واللهم هيء للناس حياة لايخاف الصديق فيها لقاء الصديق ، ولا يختلس الصديق فيها لقاء الصديق ، ولا يقطع الصديق فيها اسباب الود والحب ، لالشيء الا لأنه يخاف بأس السلطان او يرجو رضى السلطان .

طه حسين